مكية الجزء الثلاثون سورة الضحى آياتها ١١

سُورَةُ الضُّحَىٰ، مَكِّيَّةٌ، وفيها معاني بليغة، وفوائد بديعة، وقد ذكر بعضهم أنه يستحب عند قراءة الضحى وما بعدها من السور إلى آخر القرآن أن يكبر، فيقول: الله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر، لكن هذه السنة لم تروَا إلا من طريق أَبِي الْحَسَنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَزَةَ الْمُقْرِئِ، وهو من القراء كما ذكر ذلك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، إلا أنه ضعيف في الحديث.

وسبب نزول هذه السورة ما جاء عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبْطَأَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى:١-٣][٢]. وقد اختلف العلماء في فترة الوحي، فقيل: عشرة أيام وقيل: خمسة عشر، وقيل: أكثر أو أقل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالنهار، وقيل: بوقت الضحى، الذي هو من طلوع الشمس إلى قبل الزوال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾ [الأعراف:٩٨]. قيل: نهارًا، فسمي النهار ببعض وقته.

﴿وَٱلَّيْلِ﴾ وأقسم بالليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ غطى البسيطة. ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه أن الله ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أَيْ: ما تركك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أَيْ: لم يبغضك، ففترة الوحي لم تكن تركًا من الله عَزَّوَجَلَّ لعبده ولا بغضًا له، وإنما لله عَزَّوَجَلَّ الحكمة البالغة والحجة الدامغة، وكان في فترة الوحي تشوق من النبي ﷺ لما يأت بعد ذلك، وقد ثبت القول بفترة الوحي من حديث جابر في «الصحيحين»[٣]، وأما ما جاء من أن النبي ﷺ جعل يصعد على الجبال

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨/٤٢٣).
(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٥)، ومسلم (١٧٩٧).
(٣) البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

يريد أن يتردى[(١)]، فهذا لفظ ضعيف ومنكر، ضعيف؛ لأنه لم يأت من طريق متصل وإنما جاء مرسلًا. ومنكر؛ لأن النبي ﷺ ما كان له أن يتخلق بأخلاق أصحاب الوساوس والأمراض النفسية الذين يعالجون أنفسهم بالانتحار والقتل، ثم إن النبي ﷺ قد أمره الله بالصبر في غير ما موطن، وهو صاحب الخلق النبيل.

ثم بشره بشاره عظيمة: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وهذا لفظ عام في كل متأخر من أمور الدنيا وفي شأن الآخرة، ليس هو فقط أن الآخرة يا محمد خير لك من الدنيا، بل إن ما يأتي من الليالي والأيام والسنين والأعوام سيكون خيرًا لك من هذا الحال الذي أنت عليه، وفعلًا ما مر يوم على رسول الله ﷺ إلا وفيه من التمكين والعز ما لم يكن في اليوم الذي قبله، وما زال الإسلام يظهر حتى قبض النبي ﷺ وقد أتمه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. وقد خيره الله قبل موته بين زهرة الحياة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

فمن سلك سبيل النبي ﷺ يرجى له هذا. ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ الأيام الأخيرة الآتية، والآخرة التي هي دار القرار ﴿خَيْرٌ لَّكَ﴾ أيها المستقيم على دين الله وشرعه ﴿مِنَ الْأُولَىٰ﴾ من الحياة الدنيا، ومما سلف من أوائل الأمور.

ثم قال مبشرًا له ببشارة أخرى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهذا أيضًا عامة في شأن الدنيا والآخرة أن الله عَزَّوَجَلَّ سيعطي محمدًا ﷺ، ومن سار سيره واقتفى على أثره، في الدنيا، والآخرة حتى يرضى. ومن أعظم شأن الآخرة: أن الله يرضى عن عبده المؤمن رضًا لا غضب عليهم بعده: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟**»، - ومن عظيم شأن الآخرة، أن يرى المؤمن ربه - «**قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ**»[(٣)]، ومن عظيم ما يرضي الله به المؤمنين في الآخرة، الشرب من الحوض المورود الذي اختص الله به محمدًا ﷺ، وهكذا ما يلحقه من الشفاعة، والمرور على الصراط بأمن وأمان.

وفي قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وعد الله لمن حقق التوحيد وأتى بالصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٢)، وأحمد (٢٥٩٥٩)، وفيه «وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ»، وهو من بلاغات الزهري.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨١)، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحافظ على الأركان أن الله عَزَّوَجَلَّ سيعطيه من خيري الدنيا والآخرة ما يرضيه عن الله وما يرضيه بهذه الحياة، فلماذا نترك هذا الوعد العظيم ممن لا يخلف الميعاد وتتعلق أنفسنا بدنيا زائلة ووعود كاذبة من الشيطان؟! ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقد أرضاه الله، فهاجر إلى المدينة فأمن فيها، وقاتل المشركين فانتصر عليهم، وكان ضعيفًا فقواه الله، وقليلًا فكثره الله، ومحتقرًا عند الناس فعظمه الله عند المؤمنين ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح:٩].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا عظيم نعمته عليه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ ألم تكن تُربَّى في بيت جدك ثم في بيت عمك بدون أب ولا أم. واليتيم يلحقه من الضعف والهوان ما الله به عليم، من احتقار الناس، وتسلطهم عليه، وانكسار قلوبهم، ومع ذلك جعل الله محمدًا ﷺ في مأوى عظيم، أحاطه جده ورعاه كأنه ابنه، ثم أحاطه عمه أبو طالب ورعاه أعظم من رعاية الابن، وكان يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول لنبيه ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ واليتيم يلحقه ما يلحقه ﴿ فَـَٔاوَىٰ ﴾ فأواك وحفظك ورزقك.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ أَيْ: لم يكن يعلم الكتاب والحكمة فعلمه الله بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢]. فأنزل الله عليه الوحي الشريف، والآيات البليغات، والحجج البديعات، فعجز الكفار أن يأتوا بمثلها أو بُعشرها.

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا ﴾ فقيرًا لا مال لك ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أغناه بالغنائم، وفتح على أمته، حتى سيقت لهم كنوز كسرى وقيصر، وليس الغنى عن كثرة العرض فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(١)، فجمع الله لمحمد ﷺ بين غنى النفس وغنى الحال، إلا أنه كان كثير الإنفاق ربما لا يبقى معه شيء في بعض الأيام؛ لأنه كان يعطي الرجل الغنم بين الجبلين(٢)، وما سُئل ﷺ شيئًا وقال: لا، فعَنْ جَابِرِ بْنِ

(١) متفق عليه، البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لاَ»(١).

ثم أمره الله بعد أن ذكر له منته عليه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ كما كنت فقيرًا فآواك فإياك أن تقهر اليتيم بقول أو فعل؛ لأن اليتيم يحتاج إلى مزيد رعاية وعناية ورفق.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ كما كنت فقيرًا فأغناك الله وجاءك السائل فإياك أن تنهره بالطرد ونحوه.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أَيْ: كما أنعم الله عليك حدِّث بنعمة الله، كساك تُرى نعمة الله عليك، وسع عليك في الرزق يُرى أثر نعمة الله عليك بالتوسيع على أبنائك وعلى أهلك، وبالإنفاق في أوجه الخير، وبالتحدث بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليك، وفي حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيَّ أَطْمَارٌ، فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ مَالٌ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟**» قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَدْ آتَانِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الشَّاءِ، وَالْإِبِلِ، قَالَ: «**فَلْتُرَ نِعَمُ اللَّهِ، وَكَرَامَتُهُ عَلَيْكَ**»(٢).

والحمد لله رب العالمين.

(١) متفق عليه، البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٨٧)، والنسائي (٩٤٨٥).